

أسرة



د. بديع السيد اللحام
أستاذ الحديث بكلية الشريعة
جامعة دمشق



خير الناس .. أنفعهم للناس

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.
وبعد: فقد روى أبو هريرة رض أن رسول الله صل وقف على قاس جلوس، فقال: «الآن يخربكم من شركم؟»، قال: فسكتوا. فقال ذلك ثلاثة مرات. فقال رجل: يا رسول الله، أخبرنا يخربنا من شرنا. فقال: «خيركم من يرجي خيره، ويؤمن شرده، وشركم من لا يرجي خيره، ولا يؤمن شرده»^(١).

نفس، وهذا شأن المسلم الصادق في إسلامه الكامل في إيمانه. فهو المؤمن بالله، ولا خير فيمن لا يباله، ولا يؤلفه^(٢). والفت عبد الله لا يكون إلا بالاضطلاع بحوائجه، والتخفيف من معاناتهم صرورة الحياة، والانشغال بمصالحهم.

البيان في معرض العموم تللا ينضجوا، فقال: خيركم ... (الغافر). لقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن خير الخلق من يأمل الناس نواله وفضله. ولا يتخوفون منه نقيبة لما يتمتع به من حسن خلق وسماعة سكتوا، حتى كرر ذلك ثلثا. ثم أبرز

ولعل سائلا يسأل: لم سكت الصحابة الكرام عندما خاطبهم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ يقول الإمام شرف الدين الطبي مجبيا عن ذلك: «ما توهموا معنى التمييز وتخويفوا من الفضيحة سكتوا، حتى كرر ذلك ثلثا. ثم أبرز

والبذل في سبيل إدخال السعادة على قلوبهم، وقد بين لنا النبي ﷺ ثواب من كان على هذه الشاكلة، فقال: «إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس، تفزع الناس إليهم في حوائجهم، أو لئلاً الآمنون من عذاب الله».

وليمحذر من جعل الله عز وجل حوائج الخلق إليه من التقصير في أداء هذه الأمانة، وليمحذر كل الحذر من التأقلم بالخلق أو التململ منهم، وليكثر من شكر الله على هذه المنزلة التي أنزله إياها، فإنها نعمة من أعظم النعم وفضل ما بعده فضل أن جعلت حوائج الخلق إليك وليس العكس، بل يجب عليك أيها الموفق لسع الناس وخدمتهم أن تعتقد أن الله والفضل لهم عليك، فإن من لم يستشعر هذا المعنى ويدرك تكملة النعمة، ويخلص الله تعالى في أدائها عرضها للزوال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أطعم الله عليه نعمة فأسيقها عليه... قال ابن عباس رضي الله عنهما: أفلأ أكله فيه؟ قال: إن أحببت، قال: فانتقل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقتل له الرجل، أنسى ما كتب فيه: قال: لا ولكنني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ - والعهد به قرب فديمعت عيناه - وهو يقول: (فذكر الحديث التقدم).

لقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن السعي في حاجة المحتاج خير من الاعتكاف على ما لا اعتكاف من ثواب جليل، واستمع إليه ﷺ وهو يقول: «من مسح في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكافه عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ينبع وجه الله، جعل الله بيته وبين التار ثلاثة حتف كل حتف العد سداً بين الحاشتين»، وسبب رواية ابن عباس رضي الله عنهما ثبت الحديث - فيما رواه البيهقي في الشعب (١) -، أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ، فاتأه رجل فسلم عليه، ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان أراك كثيراً حزيناً؟ قال: نعم يا ابن عم رسول الله، لفلان علي حق، لا وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه... قال ابن عباس رضي الله عنهما: أفلأ أكله فيه؟ قال: إن أحببت، قال: فانتقل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقتل له الرجل، أنسى ما كتب فيه: قال: لا ولكنني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ - والعهد به قرب فديمعت عيناه - وهو يقول: (فذكر الحديث التقدم).

والسؤال الآن: أليس من كان سبباً في وصول مثل هذا الأجر العظيم أحق بالشكر من قدم المساعدة نفسه، فما أعظم من الحاجة على البالد.

إن مفهوم العبادة في الإسلام واسع، حتى يشمل كل عمل ابتنى فيه وجه الله تعالى، وأي عمل

كان بهذه الصفة ما هو إلا مظهر من مظاهر الإيمان بالله تعالى، فإننا لو استعرضنا شعب الإيمان لوجدنا أن غالب تلك الشعب يدور في تلك النفع المتعددي إلى الغير، وقد قرر العلماء - أخذنا بنصوص الكتاب والسنّة - أن النفع المتعددي إلى الآخرين هو عبادة مقدمة على التوافل من صلاة وصيام وحج وغيرها من العبادات المحسنة، بل هو أرقى منها.

قيل لبشر الحافي رحمة الله تعالى: إن فلاناً كثير الصوم والصلوة؟! فقال: المسكين ترك حاله، ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجائع، والإنفاق على المساكين، فهو أفضل له من تجويع نفسه، ومن صلاته، مع جمعه للدنيا ومنه للفقراء، وقد عد حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزاوي - رحمة الله تعالى - أمثل هذا من المغورين فقال: - هرقة من أرباب الأموال، يحفظون



الهوامش

- ١- أخرجه الترمذى في الفتن، باب: ما جاء في النبي عن سب الريح (٢٢٦٢) وقال: حديث حسن صحيح.
- ٢- الكاشف عن حقائق السنن (٣١٩٢/١٠).
- ٣- أخرجه أحمد في مسنده (٤١٩٨) والحاكم في الترسانة (٣٧/١) من حديث أبي هريرة.
- ٤- رواه الطبراني في الكبير (١٣١٠) وفي مكازم الأخلاق (٨٢) وأبو نعيم في الحلية (ترجمة زيد بن أسلم) (٢٢٥/٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
- ٥- رواه الطبراني في الأوسط (٧٦٧٠)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١٠٧) وجود الهيثمي إسناده. مجمع الزوائد ومنع الفوائد (١٩٢/٨)
- ٦- رواه الطبراني في الأوسط (٧٤٦٥) وجود الهيثمي إسناده. مجمع الزوائد ومنع الفوائد (٨/١٩٢).
- ٧- شعب الإيمان للبيهقي في الصيام، فصل: من فطر صائمها (٣٦٧٩).
- ٨- الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين: (٦٤ و٦٥).
- ٩- أخرجه البخاري في الجهاد والسيير، باب: من أخذ بالركاب ونحوه (٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٩).
- ١٠- رواه الطبراني في الكبير (١٣٤٢٥) والأوسط (٦١٢٥) وأبو نعيم في الحلية (ترجمة مالك بن أنس) (٢٤٨/٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه:

«كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس».

- يعدل بين الاثنين صدقة.

- ويعن الرجل على ذاته فيحمل عليها أو يرفع عليها مئاعه صدقة.

- والكلمة الطيبة صدقة.

- وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة.

- ويمحيط الأذى عن الطريق صدقة»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا جاء إلى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله، وأي الأعمال أحب إلى الله؟

فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه:

«أحب الناس إلى الله عز وجل انتفعهم للناس».

وأحب الأعمال إلى الله:

- سرور تدخله على مسلم.

- أو تكشف عنه كرية.

- أو تقضي عنه دينا.

- أو تطرد عنه جوعاً.

ولأن أمشي مع أخي لي في حاجة أحب إلى من أن اعتكف في هذا المسجد شهراً (في مسجد المدينة).

- ومن كف غضبه ستر الله عورته.

- ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضي أ مضاه، ملأ الله قلبه رحاء يوم القيمة.

- ومن مشي مع أخيه في حاجة حتى تهيا له ثبت الله قدمه يوم ترول الأقدام»^(٢).

فاللهم وفقنا للخيرات، وثبتنا على الصراط، واغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم.

والحمد لله رب العالمين.

الأموال، ويسكونها بحكم البخل، ويشتغلون بالعبادات الدينية التي لا يحتاجون فيها إلى تفقة، كصوم

النهار، وقيام الليل، وختم القرآن، وهؤلاء مغزرون.

- ثم قال: وفرقه أخرى من عوام

الخلق وأرباب الأموال والفقراء، اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتبروا أن ذلك يغنمهم ويفخيمهم،

فاتخذوا ذلك عادة، ويطمئنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ - دون العمل، ودون الانتظار - أجرا، وهم

مغزرون؛ لأن فضل مجالس الذكر لكونها مرغبة بالخير، وإذا لم تتحقق الرغبة فلا خير فيها، والرغبة محمودة، لأنها تبعث على العمل،

وان لم تبعث على العمل فلا خير فيها، ...

- ثم ضرب رحمة الله تعالى لذلك

مثلاً، فقال: ومثاله مثال المريض الذي يحضر إلى مجالس الأطباء

ويسمع ما يصفونه من الأدوية ولا يعقلها ولا يشغله بها، ويظن أنه

يجد الراحة بذلك...^(٣).

ويكفيك أخي الحبيب أن تستعرض ما ورد - في القرآن الكريم

والحديث النبوي الشريف - من بيان لثواب وفضل الحياة، وحسن

الخلق، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والتجاوز عن الإساءة، والعشرة

بالمعرفة، والإحسان إلى الضعفاء،

ومودة أهل الخير، وعيادة المريض، وإكرام الجار، فضلاً عن الجود

والمسخاء، ورحمة الصغير، وتوفير

الكبير، وأن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه، وإعفاء الأذى عن الطريق،

... وغيرها من ألوان العبادة التي تقربك من الله زلفاً، وتكون سبباً

من أسباب ارتقاء الدرجات العلي.